3- اتجاهات الرّواية العربية (2): الاتجاه الواقعي

أ/ في مفهوم الواقعية:

ارتبطت الإرهاصات الأولى لميلاد فكرة الواقعية [قبل اكتساحها ميدان الأدب] بالمنجز الفلسفي منذ أزمنة موغلة في القدم، وذلك حين حاول الفلاسفة التقليل من آثار الرؤى المثالية[1] والغيبية التي اكتسحت النسق الفكري لردح من الزمن، "وما زال فضل أرسطو على الفلسفة يذكر إلى اليوم بأنّه حوّل عيون الفلاسفة من السماء إلى الأرض، ولم يكن ذلك بالعمل القليل"[2]، وبالانتقال إلى الفلسفات المتأخرة يكفي النظر في خزانة منجز الوضعية ورؤاها للتدليل على اطراد الطرح، والمساعي الحثيثة لتقديم الواقع مادة قابلة للتجريد لكن لا يمكن الانفصال عنها أو فهم العالم دون الانطلاق منها والعودة إليها.

وبتتبع مسار تطور مصطلح الواقعية وتبلور دلالاته في الساحتين الفلسفية والأدبية، يمكن القول بأنّ الواقعية من منظور فلسفي "مذهب يلتزم فيه التصوير الأمين لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي وكذلك عرض الآراء والأحداث والظروف والملابسات دون نظر مثالي، ومن الناحية الأدبية، مذهب أدبي يعتمد على الوقائع، ويعنى بتصوير أحوال المجتمع"[3]، فيسعى بذلك النص الأدبي [بما هو مدار اهتمامنا] إلى محايثة الواقع وتخييل تفاصيله، محاولا "أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي"[4]. وعلى هذه الأساس عرّف رينيه ويليك الواقعية بقوله: هي "التمثيل الموضوعي للواقع الاجتماعي المعاصر"[5] في حدّ يركّب عضويا بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، فالواقعية في الأدب هي عملية تخييلية هدفها إعادة إنتاج الواقع بوعي ورؤيا خاصة تجسيدا لحقيقة الحياة بأدوات فنية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ القول بالواقعية يعلّق أدبيا حين الاكتفاء بربط النصوص بالعوالم الخارجية والتوقف عند محاولة إثبات علائقها بسياقات الإنتاج، بعيدا عن دواخل المؤلف

---

(1)- ينظر: واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر – الجزائر، ط1، 1986. ص: 342.

(2)- محمد حسن عبدالله، الواقعية في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط1، 2005. ص: 91.

(3)- إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة - مصر، ط4، 2004. ص: 1051.

(4)- مجدي وهبة/ كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ط2، 1984. ص: 428.

(5)- رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، تر: محمد عصفور، مطابع الرسالة – الكويت، ط1، 1987. ص: 165.

المسؤولة عن تخلّق النص من جهة، ودون الحديث عن عوالم الإنسان الداخلية الممثلة بنماذج معينة داخل النصوص الأدبية من جهة ثانية، وذلك لأنّ الشروط النفسية تأتي متساوقة مع الشروط الاجتماعية والثقافية المسؤولة عن إنتاج النص كمرحلة أولى وقراءته كمرحلة ثانية، ولذلك يمكن القول بأنّ الواقعية ليست مثلما يعتقد البعض مجرد نقل للتفاصيل الخارجية بأمانة، بل هي إعادة تمثّل للحياة بقسميها الداخلي والخارجي وفق مبادئ الاتجاه الواقعي في الأدب، هي حركة تتوحد فيها المشاعر مع عالم الأشياء، للوصول إلى أعماق الظاهرة المجسدة نصيا من خلال فكرة نواة مستمدة من الواقع، ودون هذا يبتعد الأدب عن أداء وظائفه ويصبح مجرد انعكاس فجّ للواقع، ولهذا نجد جورج لوكاتش يشدّد على ضرورة مواكبة التطورات بتكوين الذات وعيش التفاصيل وتهذيب الأخلاق من قبل المؤلف/الفنان يقول بهذا الصدد: "إنّ الفنانين الذين لا يعملون بعنف على تطوير أنفسهم فكريا وأخلاقيا يبقون غالبا في معايشاتهم حبيسين لهذه المباشرة الموضوعية للسطح الاجتماعي"[1].

ب/ الرواية والواقعية:

لقد اقترن مصطلح الواقعية بالأدب في القرن التاسع عشر بفضل الألماني [فريدريك شيلر][2]، وقد كانت الرواية إحدى محاور تجلياته الرئيسية، وذلك تبعا لطبيعة تشكل مكوناتها السردية التي تقابل نظام الحياة. وإذا تحدثنا عن الواقعية بمفهومها العام تتبدّى أمامنا أعمال كثيرة وكبيرة، حاولت أن ترسم ملامح الواقع بكلّ اللغات، مثل أعمال "تولستوي" و"غوركي" و"دستويفسكي" في روسيا، أعمال "بلزاك" و"زولا" في فرنسا، أعمال "كاواباتا" و"ميشيما" في اليابان، أعمال "همنغواي" و"شتاينبك" في أمريكا، أعمال "نجيب محفوظ" و"عبد الرحمن منيف" و"الطاهر وطار" في العالم العربي.

ونظرا لاختلاف سياقات إنتاج النص الروائي وتعدد الرؤى تجاه الواقع، فقد انشطرت الواقعية الأدبية [بحسب الباحثين والنقاد] إلى واقعيات، أبرزها:

---

[1]- جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، تر: نايف بلّوز، مجد للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط4، 2006. ص : 175.

[2]- محمد مندور، في الأدب والنقد، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة – مصر، ط1، 1988. ص: 109.

- **الواقعية البرجوازية:** وهو اتجاه قاده تنظيرا وإبداعا مجتمع الثقافة الألماني بداية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وهو المجتمع الذي اعتبر واقعه جميلا وعقلانيا، واكتفى بدعوة الروائيين إلى نقل جوهر الواقع دون تدخل ذواتهم داخل العمل ليرى الجميع الأرض البكر التي لم يفترع خيراتها أحد، وأبرز من مثّل هذا الاتجاه صاحب "الأسلاف" غوستاف فرايتاغ.
- **الواقعية النقدية:** أطلق هذا المصطلح استنادا إلى دراسات تحليلية لروايات "بلزاك" و "زولا" ليعمّم مفهومه على مجموع النصوص التي تتناول الواقع بالتشريح لتبيان المتناقضات، والمساهمة بوعي في حلّ المشاكل التي تتخبط فيها أيّ أمة من الأمم "وتنطلق الواقعية النقدية من خلال نصوصها من رؤيا تجعل فيها الفرد في مواجهة مع المجتمع والدولة والطبيعة، وبذلك توكل إليه أدبيا مسؤولية مصير الجماعة"[1].
- **الواقعية الاشتراكية:** كان للأدب السوفياتي [من خلال أعمال "بوشكين" و"غوركي" وغيرهما] أفضلية السبق في الكتابة داخل هذا الإطار الإيديولوجي، قبل أن يمتدّ تأثيره إلى مختلف بقاع العالم حيث الشعوب التي ستتبنّى الاشتراكية، حيث الأدباء المؤمنين بالفكر الماركسي ومبادئه، الذين دعوا إليه بعد توصيف ما أفرزته الرأسمالية، وما خلّفه أصحابها في الشعوب المستعمَرة من دمار، ومن أبرز الروائيين العرب الذين صنّفت كتاباتهم ضمن هذا الاتجاه: حنّا مينه ويوسف إدريس والطاهر وطار.
- **الواقعية التشاؤمية:** تتأسّس محاور هذا الاتجاه على مقولة مركزية، مفادها أنّ جوهر الإنسان شرّ وأنّ الخير ما هو إلا ظاهر خادع[2]، يتجلّى بملاحظات بسيطة يقوم بها إنسان حصيف من خلال مواقف يومية تجمعه بغيره، أو من خلال استبطان الذات بلغة علماء النفس، وقد ترتّب على هذه المقولة الإيمان بأنّ الحياة لا تدعو إلى التفاؤل، وبأنّ المظلم فيها أكبر بكثير من المنير، وقد برّر أصحاب هذا الاتجاه موقفهم بالعودة إلى طبيعة الشخص في حدّ ذاته، الذي يقوم بالفعل بناء على دوافع دفينة كإقدامه على العطاء وادعائه الكرم من أجل المباهاة، وإظهار الزهد بسبب البخل[3].

---

[1]- ينظر: شايف عكاشة، اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985. ص: 14.

[2]- ينظر: عماد سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، عمان – الأردن، ط1، 2009. ص: 242.

[3]- ينظر: محمد مندور، في الأدب والنقد. ص: 108 وما بعدها.

وبالنظر إلى ما يجمع هذه الاتجاهات، نجد أنّ النقاد قد حدّدوا مجموعة من الخصائص التي تميز الروايات الواقعية، والتي أذكر منها:

* الابتعاد عن التكلّف في التعبير، وعن استخدامات الرمز الغامضة.
* الاستناد إلى الواقع في بناء ملامح الشخصيات الروائية، والتعريف بها وبانتماءاتها، مع الإفصاح عن هويتها سواء أكانت هذه الشخصيات افتراضية [جيء بها لتعبّر عن فئة أو شريحة معينة لها وجودها الحقيقي في الواقع] أم مرجعية لها وجودها السابق عن النصّ وتحيل على عالم خارجي محقّق ماديا ومعروف تاريخيا، وفي الحالتين تقرّ الرواية الواقعية بالربط الدائم للنص وشخصياته بالواقع الذي تنطلق منه في عملية الكتابة وتعود إليه.
* تقديم خصائص الفترة الزمنية المخيّلة بتفاصيلها الواقعية المميزة لها.
* التركيز على وصف الأماكن بدقة.
* اللجوء إلى استخدام العامية في الحوار، أو في بعض المواضع النصية الأخرى (سرد / وصف) التي من شأنها وضع القارئ داخل عوالم نصية ذات علاقة وطيدة بالواقع المعاش.
* استخدام لغة تتساوق ومستوى الشخصيات.
* تبرير الأفعال التي تقوم بها الشخصيات داخل النص الروائي.
* البناء المنطقي للأحداث، باعتماد نظام سببي تراتبي لا يخالف العقل، وذلك بعيدا عن أي خارق ينأى بالقارئ بعيدا عن عالمه الحقيقي.
* تصوير الحياة بجانبيها المظلم والمنير من أجل توصيف الواقع.
* الاهتمام باليومي، وبالطبقات الشعبية المقهورة.

ج/ النصوص الروائية العربية والاتجاه الواقعي:

لقد تولّدت الرواية العربية في تخوم انصهر فيها الواقع والمجتمع برؤى المبدعين الذين أخذوا موقفا رياديا بتفسيراتهم لأوضاع المجتمعات العربية ورغبتهم الملحة في توليد الوعي، فتأتّت بذلك النصوص الروائية ناضجة، مؤمنة بموقع الإنسان العربي الثقافي والحضاري، واستشكلت من هذا الموقع ما عنّ لها من القضايا، بعيدا عن مثاليات الكتابة الغربية في عصورها المظلمة وبعيدا عن الكلاسيكيات العربية الممجدة للماضي شكلا ودلالة.

ساهمت الظروف العصيبة التي عرفتها المجتمعات العربية في تبنّي مبادئ الواقعية وأطرها البنيوية بمختلف اتجاهاتها للتعبير عن الواقع وتقديم حلول للمشاكل التي يتخبط فيها العالم العربي، فتنزّلت الرواية العربية بهمومها وانشغالاتها محكومة بوعي الروائي العربي وهواجسه الفكرية والسياسية والاجتماعية، قريبة من الواقع، فلبست بذلك الكثير من الروايات العربية لبوس الواقعية كاتجاه أدبي بالرغم من ارتبطها المسبق بهذا الواقع وإيمانها به[1].

بالرغم من الفضل الذي يعود إلى "محمد تيمور" و"محمود تيمور" و"الطاهر لاشين" و"عيسى عبيد" في استنبات الواقعية وبثها في نصوصنا السردية العربية الحديثة، إلّا أنّ كتابات نجيب محفوظ كانت الأكثر نضجا، فمن خلال "القاهرة الجديدة"، "خان الخليلي"، "زقاق المدق"، "السراب" "بداية ونهاية"، "بين القصرين"، "قصر الشوق"، "السكرية" ظهرت الواقعية الروائية العربية في حلّة مكتملة، من خلال حرص المبدع على نمذجة المجتمع المصري، ووصف حالاته وانشغالاته المختلفة وتسمية الأماكن بما تعرف به حقيقة، والاهتمام باليومي والمحلي والمهمش والمقموع، ونقل التجربة الحقيقية المعاشة.

لقد انتمت كتابات محفوظ الروائية [الآنفة الذكر] خلال أربعينيات القرن الماضي إلى الواقعية النقدية التي ظهرت بعيد الحرب العالمية الثانية مباشرة، غير أنّ هذا الاتجاه لم يتفرد بالفضاء الروائي العربي، إذ أُردف بأعمال الواقعيين الاشتراكيين في مطلع الخمسينيات من ذات القرن، ومن ضمن الأسماء المبدعة داخل هذا الاتجاه الواقعي (الاشتراكي) نجد: "عبدالرحمن الشرقاوي"، "الطاهر وطار" "يوسف إدريس" "فتحي غانم"، "عبدالحميد بن هدوقة" وغيرها من الأسماء.

وتجدر الإشارة في هذا المساق إلى أنّ كثيرا من الأعمال الروائية العربية قد تمترست خلف اتجاهين كبيرين للواقعية، هما الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية، أمّا بالنسبة للاتجاهات الأخرى فقد بقيت محصورة في مناطق جغرافية غير عربية ساهمت السياقات الخارجية في بلورتها، ودلّل عليها النص الروائي بإمكاناته البنيوية والمعنوية.

---

[1]- ينظر: السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية – مصر، دط، دت. ص: 73 وما بعدها

لقد طرح النقاد سؤال أهلية الرواية الواقعية في أن تكون نموذجا مكتملا يمثّل الرواية العربية في أبهى حلته، وقد نزع الكثير منهم إلى تثمين ما قدمته من إيجابيات لا يمكن إنكارها؛ نحو الانطلاق من الواقع، والعمل على قراءته، وتحليل ظواهره، وحلّ مشكلاته، وكذا خلق ما يسمى بالأدب الملتزم والرواية الملتزمة داخل الخزانة السردية العربية الحديثة والمعاصرة، إلا أنّهم رفضوا في الوقت نفسه فوتوغرافية الواقعية، أو ادعاء أصحابها ذلك، فلا بأس بحسبهم ربط الأدب بالحياة، والانطلاق من الواقع والتعبير عنه لترقيته، لكن دون أن نهمل الجانب الجمالي والفني والعاطفي والخيالي الذي لا تستقيم الرواية دونه، لأنّ الملاحظ أن هناك الكثير من الأدباء قد جعلوا نصوصهم السردية مجرد مطية إيديولوجية، هدفها إيصال الحمولة الفكرية والدعوة إليها، والتقزيم من مخالفيها، وهو ما نلحظه بشكل جلي في بعض كتابات الواقعيين الاشتراكيين.